الطيور والضباب

تلتقي صوتها العندليب تناثر في الليل رنّانه الذهبيه
يتباعد وجه لها بعد حد الضباب يحاور لألاؤه
الزرقة الابدية .
يتعقب ايماضة وجهك المتصيد في ضوئها فرحة
أو فراشه .
كان وجه الغريب استباها ، فهل ستتابع تقليب
احراش عالمك الساكن الآن ؟
وجهها ساكن" .
البحيرة هادئة" .
يلتقي الخطو بالخطو . والموج كان استساغ الضياء
المهادن بين ضفاف من الصمت في الغابة النائمه .
فتمدّ يديك الى طيفها الفرح المتضاحك ـ يدهمك الرقم !
قائمة الكهرباء لتدفعها في الصباح ،
المؤجر جاء ، انتظار لدورك عند
الطبيب ...
قرأت الجريدة في الباص ... لو أستريح!
أسترح حيث أنت ، الى الكتف الابيض المتلألىء
تلتجىء الجبهة المتعبه .
تستريح على زندها اللؤلؤي وتحلم :
ـ كان الاقاح أستفاق وأنت قريب من النوم ـ
تنهض منكسرا :
« ما يزال الجهاز على عيبه ، هل تراه ؟
البرامج حين يسوء الجهاز تطيب ..
هل سمعت ؟ تغطى المقاييس كي لا تفجّر
في البرد ـ تسمعني ؟ »
سامع .
تتهدل من زهر الليلك أغنية يتساقط منها الندى
والطباشير ،
يتساقط زيت ،
يتساقط صوت كسير ،
يتساقط ـ
« سيدتي ! »
ثم أهفو لأمسح عنها التراب الملوّن ،
أسترجع الريف في كلمتين ـ
العيون الغزالية المستباة تأمرلني لحظة ،
ثم تطبق أهدابها .
أتأمل شاطئها الابنوس ، أزهارها البيض ... أغفو :
« المسافة زرقاء بيني وبين انتظاراتها
المسافة زرقاء ما بينها والحياة الحقيقة . »
ويحاصرني الزمن الصلف يرمي التواءاته السود
بيني وبين الطريق الى السهل ،
تتمدد في الحجرة أصواته :
« الملح الخبز ، الملح الشاي ، الملح السم ـ
الموت الموت ! »
لجلود القطيع يجيء الصباح ، ونحشر في نقّالة الموت
تراكض أرؤس البشر الباحث عن ضفة عن قرار
تتراكض بين المداخن والطرق الصاخبات
تتراكض ... ان التعاسة الحضرية في الصوت والوجه
ان الزمان المكيج يفمزنا في الطريق ويسرق منا
البراءة والصحو ـ
« ما تزال على الحلم تطفو ،
على القش تبحر في زمن السفن
الناقلات جبال حديد .. »
بحرٌ صاخب ،
الاذاعات تلقي على الناس أوحالها ،
في الدوائر ننشف حتى يجف بنا الزيت ، نيبس كالسعف
نسقط كالسعف ، نوقد مثل الملفات ضاقت بها
ظلمة الدائره :
« استفق ! أنت أين ؟ »
ان الجدار يسد الطريق وما زلت تطفو على القش ..
ان الجدار حديد ، وان الخيول حديد ، وان الجسور
حديد ، وأفقك والعمر أسطورة من حديد .
« استفق ! أنت أين ؟ »
حينما تتدحرج في ساحة كالقيامة صاخبة
دائرا رأسك المتحير بين قطيع من الجيب والتاكسي
والشاحنات ،
ضائعا وجهك « الصفر » بين العمارات ،
تتأرجح في الضوء والصوت ،
تتأرجح في الصخب العنف والصمت ،
تتأرجح ...
حتى يبتّ بك الخيط تهوي الى ظلمة الكهف
باردة قدماك .
في الشوارع ترجع مستوحشا ، تتلملم في قشرك الآدمي
تعود
حلزونا صغيرا
تعود
فاقدا لونك الساحليّ
تعود

* * *

لدفء اليد التي تتقدم سحر .
تتفتح ثانية في ظلال بساتينه ،
تتألق ثانية ـ
انها الآن ، والعشق حقل ببيتك
ان حورية الشمس قد خرجت توّها ومشت في الحديقه
داعبت غصنا في الممرات والقت على شعرك المتثائب
خيطا
يتحول وردا
عصافير

صوتا ـ
يتحول ماكنة تأكل الاوجه البشرية ـ
« تتحدث والصمت ؟ ماذا تقول ؟ »
ولغابتها يرحل الوجه ، يمضي الى مذبح في الظلام
يؤدي الطقوس الى البهجة النبوية ، يهمس أسرارهـا الوثنيه ..

فيباركه وجهها المتضاحك في الوهج ،
تكشف عن سحرها الفجري القديم ، تحدثه .
لهجة العشق بينة ، هذه زهرات المحبة ،
هذه كفها ،

والطريق على الماء ... حتى الوصول ـ
رحلة في ضجيج النهار الى الورشة ، السوق ، الفرن،
الـ ... . نلتقي في غروب النهار :
حجرة ، كهف .
ألفة ، همهمات .
قليل من الضحك الفارغ .
اكتأبوا كلهم .
صمتوا .
الموت حتى الصباح .
أنتهي نورسا أبيض فوق مد من الزرقة حتى يواجهني النجم ـ

وأنا أتوهم صوتا جديدا ـ
صوتها الارغني يحدث غابتي المدلهمّه ،
وجهها يتقدم لي مثل نجمه
وجهها دافيء ـ الجليد الذي في ضلوعك وطأته .
هل لهذا الذراع ، النيون الذي امتد تطوي طراوته
جذعك الخشبيّ دفء السنا في الحديقه ؟
هل تظل وحيدا ووجهك في صدرها تسمع الهتفـات البعيده ؟
هل تظل وحيـــدا وتبقى التي تحمل الدفء معلقـة في فضاء الجليد وحيده ؟
تتشابك أصداؤها ـ
حمرة للورود التي قرب وجهك تجمد في زرقة للسماء الفريقة أنجمها ،
انت وحدك . ان الذهب
يتهالك بين يديك ويخسر فرحته والتوهج .
صوتها كالصفيح يدق على الرأس ـ استفقت !
ـ « كم تريدين خبزا ؟ »
ـ « علبة الدهن فارغة .
ان هذا المسخن يزعجنا صوته .
هل نرى الفيلم ؟ أكره الجمعة .. صاخبة.
قد تغيرت !
كل يوم هو العرق السمّ في الغرفة ؟
غيمة وجهك الذي كان اما تحدثت يفترّ
ونغمته كالحرير .. أما قلت آخر قسط سيدفع ، فلنتريث للسلفة الثانية ؟ »
« كم تريدين خبزا ؟
« . . . . . »
الضياء الذي مرّ في دارة المتصوف أشرق في وجهها

الزنبقي وغادره في الممرات عبر المصانع
يتحول شحاذ خبز ، يتوسل ليل البيوت وضوء الشوارع
« تتكلم ؟ ماذا تقول ؟ »
يتحول اعلان فيلم واكذوبة في الجرائد .
« ما تقول ؟ »
يتحول قائمة للرواتب
يتحول زنزانة ومتاعب ـ
هل تطير الطيور بهذا الضباب الكثيف ؟ هنيئا لوجه يغادر هذا الضباب الى الصحو ـ
تتغير يوما فيوما . وينكسر الضوء دون طريق الحقول.
« شعرك المتيبس كالقش يهتز ..
أضحكتني ! »
آملا أن ترى زهرة للوصول ؟
أن ترى منفذا ، أن تحس الطريق الذي يستمر
الى الشمس ، الى ضفة السفن الطالعة ؟
. . . . . ليس في وجهها ومضة باقيه .
« الجارتنا كنت تنظر ؟ شعر لها كاذب
تتأمله دائما وتحسر .. اني رأيتك
أكثر من مرة ..
تشتري ما وعدت ؟
هو الصمت صمتك يقتلني ، الملابس
لا تستقر على الحبل ، تفكر في أي شيء؟ »
الرغيف استدار وأشرق في الافق صار يضيء
الطريق الى الله .. ـ
« ماذا تقول ؟ »
ليس في وجهها ومضة باقية ،
الضياء الذي مرّ في دارة المتصوف أومض في وجهها
وتحول عشقا جديدا
رجل وجهه صاخب بالعناوين وعاشقة غرقت بالنعوت
وخيط المحبة غائب ـ
« صاخب ؟ ما فعلت ؟
ذهبت الى البنك ، بعت ، حصدت ، اشتريت ،
تمكنت من صفقة ؟ استطعت تزيف رقما؟ تخادع؟
قل لي ماذا فعلت ؟
السنون التي تتساقط قربك أجساد موتى
تغادرها ثم تمضي ولم تتعلم منها
الحصافة في الاخذ :
ان التفاهة ضاحكة في الشوارع
والحكمة النبوية شحاذة في الشوارع !.
تتقدم لي كفها ،
ترفع الشعر المتيبس كالقش عن جبهتي ،
الصباح الطري الطيور توزعه ، النخل يسبح فيه ،
الوجوه ، الحشيش ، النوافذ ...
الحياة ، الحقيقة ، تمتد عريانة والضياء النقي جديدا
تقدم حتى الافق .
قبل أن ... ،
قبل أن ... ،
لاحدّق ثانية في الحياة ...

بغداد

ياسين طه حافظ